حرب البكتريا

«وإذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة . قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك. قال إني أعلم مالا تعلمون».

وهكذا شاء الله ولا رادّ لمشيئته — خلق الخليفة آدم ثم رزقه ذرية منها . هابيل وقابيل تخاصم الأخوان وكانا رمزين للخير والشر . فقال الخير « لئن بسطت اليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك اني أخاف الله » بغى الشر على الخير فقتله . « فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه . « فقال ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي . فأصبح من النادمين » .

هذه قصتنا في بدء الخليقة لا تزال تمثل على مسرح الحياة المرّة بعد المرّة وسوف يستمر تمثيلها حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

وكلما أنت الزمان قناة ركب المرء للقناة سنانا

اصلاح وتعمير يتلوه تقتيل وتخريب . وهكذا دواليك . فلا سلام دائم ولا حرب واقية ذلك لأن هذه التقلبات نتيجة مؤثرات خارجية واستعداد داخلي . ألا ترى كيف تصبغ الفراشة بلون الزهرة التي تتغذى منها . وكيف تتغير الضفدعة بتغير المحيط الذي تعيش فيه وهي في بدئها سمكة في ماء وفي كبرها دابة على يابس . وهكذا الانسان يتقلب بتقلب الأجواء المحيطة به . فكما ان الجو يكون ممطراً أو صحواً والرياح راكدة أو عاصفة كذلك الانسان تارةً في يسر وسلام وتارةً في ضنك وحرب شعواء . وما الحروب الدينية والسياسية والعنصرية والتجارية إلاّ نزاع بين متناقضين لا بدّ ان يتغلب فيها الأصلح مهما ظهرت الرذيلة بمظهر الظافر المنتصر . فالبقاء للأصلح .

اذا تتبعنا تاريخ الحروب منذ أقدم العصور نجد أولاً ان القدماء المصريين بعد ما ابتكروا

الحراب والهراوات والأقواس والسهام ضموا المجهود الفردي فكونوا الفرق المقاتلة وأمروا على كل فرقة قائداً . فعلى أجدادنا ذلك قصد تركيز القوة . فإذا سددوها ناحية خاصة كانت أشد تدميراً وأكثر تقتيلاً . ثم أتى الميكسوس فابتكروا المجلات الحربية ثم استبدل الانسان الجياد فكوّن فرق الفرسان . وهكذا تفنن الانسان في وسائل التقتيل . وقتل الانسان ما أكفره .

ثم اكتشف الانسان البارود والدناميت وصنع القنابل واليناديق والمدافع ثم ابتكر الصواريخ ثم قذائف الطائرات ثم القذائف الطائرة . ثم أخرج القنابل الذرية فالأهمية مما جعل الغازات الخانقة أمراً حقيراً . ولا يبعد اذا كتب لهذا الكون ان يرى حرباً عالمية ثالثة ان يبقى على قيد الحياة إلا النفر القليل .

وعلّم الله آدم الأسماء كلها . وزوّده بعينين براقتين وعقل سليم . فرأى ان الأهوال السابقة قد لا تكفي للابادة ففكر وقدر فقتل كيف قدّر ثم عبس وبسر فرأى الطاعون وقد فتك بجيش نابليون عند عكا فكان عليه قضاء مبرماً . ثم شاهد الذباب وهو ينشر التيفود بين الانكليز في حرب البوير حتى فاقت ضحاياه ضحايا أعنف الحرب مجتمعة . فافتكر في حرب البكتريا لترجيحها المرافق الاقتصادية العامة فصد خل الانتاج الحربي .

والبكتريا كما نعلم كائنات دنيئة لا تراها العين المجردة لكنها أهم وسيلة لقتل الأحياء من انسان وحيوان ونبات . وأغلب حالات الشيخوخة والإصابات العارضة إنما تنتهي بالوفاة نتيجة للاصابة بالبكتريا في شكل مضاعفات . لكن هذه البكتريا لا تعمل عملها كاملاً إلا إذا توفرت لها الشروط المطلوبة لكل نوع وإلا خمد نشاطها وانعدم تناسلها وقلّ خطرها .

والعصور الوسطى بأوربا حافلة بحوادث اتهم فيها أبرياء بنشر الطاعون الدملي بين الأهالي عمداً بتلويث مياه الشرب بالآبار . وقد أعدم الكثير بعد اعترافهم بجرمهم على الرغم من أن الطاعون الدملي لا يمكن أن ينتقل بطريق مياه الشرب أبداً بل لا بد من انتقاله بواسطة برغوث الفار فمن المستحيل إذن أن يكون هناك أساس لهذا الاتهام ولكن لكل عصور محاكم وآراء ..

أمَّا في أفريقيا الاستوائيـة فلا يزال بعض الأهالي هنـاك ينسب تفشي الانفلونزا والالتهاب السحائي الوبائي ومرض النوم الى عمل جنائي سحري يتهم به شخصاً بريئاً لاحول له ولا قوة بل ولا صلة له بالموضوع .

وهكذا تساوت أوربا وأفريقيا بل ربما فاقت الأولى الثانية اذ على الرغم من قدم المدنية في الأولى وتقدمها في العلم والاقتصاد وعلى الرغم من وجود المعاهدات والاتفاقات الدولية بعدم استعمال حرب البكتريا بين أهالي تلك القارة نجد منهم من يمد إليها . فليس سرًّا الآن أن أحد رجال المحور ضبط وهو يحاول الحصول على مزرعة لمكروب الحمى الصفراء الخبيثة قبيل الحرب العالميـة الاخيرة . والغريب أن في خريف سنة ١٩٣٩ اتهم الدكتور جوبلز الانكليز بنقل هـذه الحمى القتّـالة من غرب أفريقيا الى المند بطائرات خاصـة — فرمى أعداءه بالجريمة التي كان يرتكبها ذووه .

ولا يحسبنَّ أحد أن حرب البكتريا أمرٌ سهل بل هو صعب غاية الصعوبة بل هو مشكوك في امكان نجاحه ولا يمكن مقارنته بوسائل التقتيل والتدمير التي اكتفت أخيراً. اللهمَّ اذ تمكن الانسان من توجيهها نحو اقتصاديات أعدائه من بني جنسـه فلا يقتصر في استعمالها على البشر بل يتعدى ذلك الى الحيوان المستأنس المفيد كالحيوانات الزواعية وغيرها والى النبات وعلى الأخص الحبوب إلاَّ أن ذلك يحتاج لدراسة كبيرة فنحن لا نزال نجهل الكثير من طرق انتشار هذه الأمراض ودرجة فتكها ومقاومة الحيوان والنبات لها كما اننا لا نزال نجهل طرق اكتشاف كثير من هذه الآفات ووسائل التحصين ضدها وعلاجها النوعي الخ ...

ولعل أقرب هذه الآفات الى النجاح هي الآفات الزراعية لسهولة نشرها بالطائرات على مساحات كبيرة يلي ذلك الأمراض المسببة بالمكروبات الدنيئة Virus والتي لا ترى بالمجهر لأن علاجهـا النوعي لا يزال مجهولاً ولقـاح التحصين ضدها أما غير موجود كلية أو موجود بكميات صغيرة لا تكفي لتحصين عدد كبير من السكان . ومن هذه الأمراض الجدري ولكن الحصانة ضده أصبحت الآن ميسرة . أما غيره من الأمراض المماثلة فلا نزال نجهل الكثير عن العشرات منها وأمثال هذه الحمى الصفراوية ، حمى الببغاء ، مرض التقدم والفم ، طاعون الدجاج وهكذا .

بعد ذلك تأتي طائفة من الأمراض المعروف سببها مثل الطاعون الرئوي ، الحمى المنوجة ، داء التنحم ، تسمم الطعام ، السقاوة وغيرها — وكلها أمراض يمكن أن يحاول الانسان احداثها بشكل وباثي ولكن ذلك مشكوك في نجاحه كثيراً .

والى جانب ذلك تأتي الحشرات الناقلة للامراض فنقل بعوض الجامبيا مثلاً ونشره فرق منطقة زراعية أو غيرها مما يتواجد فيها مرض الملاريا بشكل خفيف من السهل جداً احداث وباء شديداً يشل الحركة الاقتصادية في ذلك الاقليم . وقد عانا القطر المصري من ذلك الكثير بعد ربتي قنا واسوان وبدرجة متوسطة في جرجا ، وبذل مجهود الجبارة للقضاء على هذا البعوض . وسبقت البرازيل مصر في ذلك وكلفتها مقاومة هذه الحشرة ما يفوق تكاليف حرب بأكملها . فمثل هذا البعوض اذا وجه الى قطر قبل اعلان الحرب عليه بمدة كافية من الجائز جداً ان يشل حركته الاقتصادية بل ويجعله غير قادر على صد العدوان .

وما يقال عن الملاريا يقال عن الحمى الصفراوية هذه الحمى قتالة للغاية وهي تنتقل بواسطة بعوض خاص يعرف باسم (ايدس اجيبتي) وهذا البعوض منتشر جداً في القطر المصري وغيره . فاذا ما أدخلت في أحد هذه الأقطار أعداد وفيرة منه مصابة بفيروب المرض أحدثت اصابات بالحمى الصفراوية في الانسان ومتى بدأ الوباء سهل انتشاره جداً إذ ان وسيلة نشره متوفرة من طبيعة الحال . وهناك يحل الدمار ويحل الخراب .

وأعيد فأكرر انه على الرغم من كل ما قيل فانه من المشكوك فيه جداً امكان استعمال البكتريا كسلاح في الحروب ضد الإنسان او حتى في نطاق متوسط لأن نشر هذه الأوبئة بالطائرات لا يزال مجهولاً عند الكثير كما أن احتمال البكتريا لقوة انفجار القنبلة الحاملة لها لا يزال أمراً في عالم الغيب .

ولا يمكن منع حرب البكتريا بالاتفاقات الدولية بل قل انه أصعب مراساً من منع الحرب الذرية .

والناحية المطمئنة في هذا الموضوع هو جهل الانسان بالعوامل التي تسبب الأوبئة وقت الارادة اذ لم يتمكن الانسان من احداث أي وباء للآن في وقت مخصوص أو بعبارة أخرى لم يتمكن من التحكم في الأوبئة وإحداثها ، فان ذلك بالقنبلة الذرية واخضاعها لمديئة صاحبها هذا الى جانب قوتها الهائلة في التقتيل والتدمير مما يفوق كثيراً تأثير الأوبئة المرضية .

الدكتور حسن كمال ،

مدير رعاية الامومة والطفولة بوزارة الصحة